

محمود درويش... اختراق جدار الصمت لفضح جرائم الغزو

قراءة في سيرته الشعرية والفكرية

Mahmoud Darwish... Breaking through the wall of silence to expose the enemy's crimes

د/وداد طيبي*

تاريخ النشر: 2021 / 06 / 30	تاريخ القبول: 2021 / 02 / 23	تاريخ الإرسال: 2021/01/25
-----------------------------	------------------------------	---------------------------

الملخص:

إن الشعر العربي في العصر الحديث يقيم الدليل على مروره، بتجارب متنوعة مرتبطة بانعكاس ثمرات عصر الحداثة منذ القرن السابع عشر. وحين نتأمل مشهد الأدب العربي نجد بروز رادة الفكر الإصلاحي من نقاد وشعراء عرب الذين تذوقنا معهم إبداعاتهم الحديثة، ومحمود درويش نموذج لجيل طرق باب الكتابة الحديثة، وحمل لواء التنوير من خلال شعره، باعتباره رمزا من رموز النهضة الأدبية في فلسطين. الكلمات المفتاحية: محمود درويش، جدار الصمت، الحداثة الشعرية.

Abstract:

Arabic poetry in the modern era establishes the evidence for its passage, with various experiences related to the reflection of the fruits of the modern era since the seventeenth century. And when we contemplate the scene of Arab literature, we find the emergence of the reformist ideology among Arab critics and poets, with whom we have tasted their modern creations, and Mahmoud Darwish is a model for a generation who has knocked on the door of modern writing, and carried the banner of the Enlightenment through his poetry, as a symbol of the literary renaissance in Palestine.

Key words: Mahmoud Darwish, Wall of silence, Poetic Modernism

*** **

المؤلف المرسل: ووداد طيبي taibiwiad0@gmail.com

*قسم اللغة العربية وآدابها جامعة البليدة 02 taibiwiad0@gmail.com

1. الحداثة في الشعر العربي الحديث

1.1. سؤال الحداثة:

قد يبدو سؤال الحداثة في ظاهره بسيطاً وطبيعياً، لكنه في الواقع يحمل في طياته من الصعوبة ما جعل الدارسين يعجزون عن إيجاد الجواب المناسب له، نظراً لما تمنحه الكلمة من مدلولات لا نهائية الأبعاد، مما يدل على أن مسألة الحداثة حدثٌ مهمٌ في الثقافة الإنسانية، وتغيير جذري في مسار أوروبا ومن ثم انتشار قيمها الثقافية في أنحاء العالم.

فمصطلح الحداثة "أطلق على مسيرة المجتمعات الغربية منذ عصر النهضة، ويشتمل الترشيد الاقتصادي والديمقراطية السياسية، والعقلانية في التنظيم الاجتماعي، وارتبط بوصفه حركة اجتماعية شاملة بالخروج من العصور الوسطى المسيحية، وانتقل إلى المجتمعات الرأسمالية التي تتسم بالتجديد والتحديث، وصاحب عمليات العلمنة، والعقلانية، والفردية"¹، فهو مفهوم كلي متعلق بمشروع التطور الاقتصادي والرأسمالي والعلمي والتكنولوجي والفكري وكل التحولات العميقة التي حصلت في أوروبا.

وهو من الناحية الفكرية له علاقة، "بفكر حركة الاستنارة الذي ينطلق من فكرة أن الإنسان هو مركز الكون وسيده، وأنه لا يحتاج إلا إلى عقله سواء في دراسة الواقع أو إدارة المجتمع أو للتمييز بين الصالح والطالح، وفي هذا الإطار يصبح العلم هو أساس الفكر، مصدر المعنى والقيمة، والتكنولوجيا هي الآلية الأساسية في محاولة تسخير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته، والعقل هو الآلية الوحيدة للوصول إلى المعرفة"² ومهد هذا المشروع النهضوي الجديد ذو الطابع الإنساني، في بناء بنية تحتية أعادت النظر بعلاقة الفرد بالجماعة ودوره فيها، وتعزيز مكانته في المجتمع بعدما عاش آلاف السنين مهمش من طرف الحكم الديني الكنيسي والجماعات الدينية المسيطرة في أوروبا، الذي فرض قوانينه باسم الدين منذ القدم على طريقة حياته وثقافته، بطريقة إخضاعه بشكل مطلق لسلطة الجماعة وللعادات والتقاليد الاجتماعية، فقد كان مصيره مشترك بشكل كامل ضمن إطار الجماعة التي ينتهي إليها.

أصبح الفرد في إطار الحداثة، الركيزة الأساسية في المجتمع وذروة التحول في هذا المشروع، فبعدما ضاق مسار حريته في ثقافة تخضع للواجبات دون الحقوق وتكافؤ

الفرص، مع طغيان الطرائق التقليدية المميتة للإبداع، تحول بعد هذه النهضة من مستعبد إلى فرد يقرر مصيره بيده، وأصبح بإمكانه ضمن هذه التحولات التي طرأت على طبيعة المعتقدات والأفكار السائدة في أوروبا خلال العصور الوسطى القيام بأي نوع من المهن بكل حرية، كما ساهمت بإبراز القدرات والمهارات الفردية، وفتح المجال ليطور الفرد نفسه في أجواء حرية الفكر وفي مناخ تعددية ثقافية تشجع على الاختلاف والتنوع، و"التمايز الثقافي، ووافق التصنيع وانتشار العمران، وانتقل بالمجتمعات الأوروبية في شكلها ومضمونها من مرحلة عصور الضعف، وما تحمله من ارث ثقافي وسياسي، واجتماعي، وديني إلى مرحلة تجاوزت فيها نمط الفكر، والحياة والمجتمع والدولة الذي كان سائدا فيها مدة من الزمن"³

فالحداثة حركة تعددت مرجعيتها لكن اتفق على أنها نضال العلماء والمبدعين نحو "التقدم، وعدم الثقة بالتقاليد، وبالتفاؤل والإيمان بالعقل، وبال دعوة إلى التفكير الذاتي، والحكم على أساس التجربة الشخصية"⁴ وتجدر الإشارة إلى أن مسألة عدم الثقة بالتقاليد تعني قطع الصلة بنمط حياة السلف، وهذه هي الفكرة الأساسية التي تبناها العديد من المفكرين مؤكدين أنها "ممارسة السیادات الثلاث عن طريق العلم والتقنية: السيادة على الطبيعة، والسيادة على المجتمع، والسيادة على الذات، ناهيك عن عدها قطعاً للصلة بكل ما هو تراث وقديم، وإنشاء لعالم جديد كلياً. فزمنها زمن متجه نحو المستقبل، وعصرها هو العصر الذي يختل فيه التوازن بين الماضي والمستقبل، يحيا ويفتح على الجديد الآتي، لا يستمد معياريته من ذاته، من خلال تحقيق القطيعة الجذرية مع التراث والقديم"⁵. وتشكل هذه الأخيرة غاية ومنطلقاً مهماً لقيام الحداثة بصورة عقلانية وإبداعية، وذلك بنز كل ما هو غير عقلائي، وكل المعیقات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تمنع وتعارض تبلور التفاعل الإيجابي بين القوى البشرية باعتبارها المحرك الأساسي والمباشر وقيام قوى بشرية ناهضة تضع مشروع التحرر والتقدم على رأس أولويتها.

1. 2. الحداثة عند العرب:

بدأ تاريخ الحداثة العربية مع "بداية الحرب الأهلية الأسبانية، التي انتهت بانتصار الفاشية سنة 1939م، فكان لها صدى قوي في مصر بالذات، حيث كانت مهياة بموقعها لأن تكون مهذا وهدفا مباشرا من أهداف المحور، خاصة وأن في مصر جاليات كثيرة العدد وعظيمة الثراء، وكان بينهم عدد كبير من اليهود من جنسيات مختلفة، فكان طبيعيا أن يتجمعوا وأن يتدارسوا موقفهم وأن يحاولوا القيام بعمل ثقافي إعلامي يضم شملهم ويقرب بين أفكارهم ويجتذب إلى التعاطف معهم ممن يمكن اجتذابه من المثقفين الوطنيين"⁶، وإذا استندنا إلى النصوص التراثية التاريخية في نشأة الحداثة نجدها قد حددت منذ القرن السابع للهجرة تماما عندما أقدم كل من بشار بن برد، وابن هومة والعتابي وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام وابن المعتز والشريف الرضي وآخرون في محاولة الخروج عن تقاليد الشعر العربي في ذلك الزمن.

ويبدو أن مصطلح الحداثة "مصطلح بالغ العراقة والجدة في الوقت نفسه، ذلك لأنه يشير إلى الصراع بين "القدماء" و"المحدثين"، ذلك الصراع الذي يفرض إعادة النظر في الموروث من التصورات الأدبية والاجتماعية والدينية. وكان ذلك على أساس من وعي متغير بواقع متحول من ناحية، وعلى أساس من حوار مع تراث آخر، يعاد إنتاجه لصالح هذا الوعي المتغير من ناحية ثانية، وبالقدر نفسه يشير المصطلح إلى صراع جديد معاصر، بين "قدماء" و"محدثين" حول التغيرات الجذرية التي وقعت في القصيدة العربية المعاصرة، منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية"⁷.

فالمتتبع لأحوال التجديد في الشعر العربي، يجد الباحث في مجرى تاريخ الأدب العربي، أن أبو نواس أول من هدم نظام القصيد القديم وذلك بخروجه على السمات التقليدية وخاصة ما تعلق بالمقدمة الطلالية الشائعة لدى شعراء زمانه وثقافتهم، حيث تحولت إلى مقدمة خمرية، وتابع في هذا التوجه الشاعر أبو تمام حين ثار وتجاوز عصره وموضوعاته التي استطاع بها اختراق آفاق شعرية أرحب، على نحو الذي شاهدناه فيما بعد لدى طه حسين أحد أعضاء جماعة جماعة جديدة من المفكرين المصريين والعرب، وجماعة الديوان، وجماعة أبولو، وشعراء المهجر وشعراء العراق الحداثيين وفي طليعتهم نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعند شعراء كثيرين في جيلهم الذين اعتنقوا نمطا علميا في النقد والإبداع الأدبي هدفه تحرير العقل العربي من الأسلوب التقليدي العقيم.

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم مصطلح الحداثة وخاصة ما تعلق بالتأسيس الجديد للتحولات السياسية والفلسفية والثقافية التي يتضمن السعي الدائم والمستمر في تحقيق التميز العقلي الذي يؤدي إلى التميز العملي، وفقا لرولان بارت أن الحداثة "زلزال حضاريا عنيفا وانقلابا ثقافيا شاملا، لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه، إذ هي موقف عام وشامل ومعارض للثقافات التقليدية الشاملة السائدة، فالحداثة تدعوا إلى إعادة النظر في كثير من الأشياء والتحرر من القيود، فهي عملية تقدمية حتى لو كان المخاض عسيرا، فهي تنشئ عصر جديد اقترن بالتطور والتقدم وتحرر الإنسان، فالحداثة هي رؤية فلسفية وثقافية جديدة للعالم"⁸.

أما السؤال الذي يُطرح بإلحاح هو: هل ما يقال عن الحداثة في الغربوكل ما تضمنته من تحولات كبرى، ملائمة في توليد نهضة عربية من منظور مختلف؟ هل تفاعل الشاعر العربي مع الحداثة الغربية باتخاذها نموذجا لموجبات التجديد والنهضة، أم هو تجديد بأهداف عربية ذات أبعاد إنسانية؟ هل يخوض الشاعر العربي في قضايا المجتمع العربي، ويعمل على تشخيص عوالمه وقضاياها؟

نقول: شكلت الحداثة بالنسبة للعديد من المفكرين العرب التقليديين والمحافظين، اقتحام للمقدسات الإسلامية والفكرية العربية التي يمكن مسها، واعتبروها منهجا غير متجانس مع نمط حضارتنا وهي من المواجهات الأولى التي واجهت الحداثة العربية، وهذا ما أشار إليه الفيلسوف طه عبد الرحمن "على نقد التقليد العربي لنمط الحضارة الغربية، والتحذير مما طال هذه الأخيرة من آفات منهجية ومعرفية وأخلاقية. وما استتبع ذلك من وقوع في جملة الشُّبه تمس موضوعات الهوية والعقيدة والعقل، ليقدم إسهاما دقيقا في معالجة جملة من الإشكاليات النظرية والعملية التي تطرحها الكتابات المستشكلة لموضوعي الحداثة، وهو إسهام نقدي على وجه الخصوص، يصدر من مفكر إسلامي عربي خبير بقضايا الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة، وهو ينتصر بوضوح في نفس الوقت للمرجعية الإسلامية العربية التي تختزن الهوية والذاكرة والإمكانات"⁹، فإن الفكرة عنده تأخذ بعدا دينيا، معبرا عنها بمسلمات منها "لا إنسان بغير أخلاق" و"لا

أخلاق بلا دين"، تشكل قضية الدين والأخلاق معوقات النهضة من وجهة نظر العديد من المحافظين، الذين تتكسر عندهم كل محاولات التجاوز والتهوض.

لذلك حسب رأيه "لا حادثة إلا بصورها من الداخل، لا بورودها من الخارج، ولا حادثة إلا مع وجود الإبداع، لا مع وجود الإتياع، فلا تكون الحادثة إلا ممارسة داخلية مبدعة"¹⁰، الحادثة. في مشروعه الفكري. لا تكمن في الحاجة إلى إتباع الفكر التنويري الأوروبي، لكنها برأيه هي موجودة وحلها الجذري أن تكون بعقول أهلها في المساهمة في النهوض بالوطن من حيث التطور التكنولوجي، ونمو الحس الثقافي والأخلاقي، وارتفاع معايير الكفاءة وخاصة في النظام السياسي وتوجهاته، وكذا فيما يتعلق بالإبداع بخلق وسط ثقافي جديد يختلف في موضوعاته تساعد على النهضة.

في حين كان موقف محمد مصطفى هدارة بأنها "اتجاه فكري أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية، وكل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة ذلك أنها ضمن كل هذه المذاهب الفكرية، وهي لا تخص مجالات الإبداع الفني والنقد الأدبي، ولكنها تخص الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على حد السواء"¹¹.

ومن ناحية أخرى ثمة متفائلون يؤمنون بقدرة البشر في خضم عصر المعلوماتية العظيم، على إمكانية التلاحق والتكامل بين الثقافات، والقدرة على الخلق والإبداع أمام تبادل الأفكار التي تثمر النتائج التي تساهم في خلق المعرفة، وكذا السعي الدءوب لمواكبة التقدم وبالتالي حل مسألة الحادثة، أما التقوقع والانعزال إنما هو ببساطة بمنزلة الانتحار، لأنها تكسر كل محاولات التجاوز والتهوض، وهذا ينطبق على الفرد والجماعات، يقول محمد أركون: "الانطلاق من نقطة الحادثة وليس من نقطة الماضي أو التراث، ينبغي علينا تهذيب نفوسنا وتدريبها على أن تتصرف بطريقة متسامحة ومنفتحة ومرنة، وأن نقبل شيئا أساسيا يعتبر من منجزات الحادثة العقلية ألا وهو نسبية الحقيقة، الأمر الذي يتعارض جذريا مع مطلق الحقيقة، أو الاعتقاد بوجود الحقيقة المطلقة كما ساد سابقا في كل الأوساط الدينية"¹²، وببدو أن الهدف الحقيقي من قول محمد أركون الفصل بين الدين و النهضة الفكرية العربية، لأن حسب رأيه المخالف تماما للرأي الأول، لا الدين ولا التراث يشكل مفتاحا للولوج في العالم الحديث، والدخول إلى أفاق العصر العلمي الحديث.

لا نستطيع في صفحات قليلة التطرق إلى مختلف التيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، وأن نستعرض كل النزاعات للكشف عن الحداثة، وهذا لوفرة المعارك التي خاضها أصحابها، سواء كان ذلك ناتجا من تعصب ديني، أو تسلط سياسي، أو تصلب اجتماعي، أو حتى من ناحية التحيز الثقافي، بحيث فشلت من جهة في الفهم الصحيح للحداثة تتفق وأهدافها ووعودها، ومن جهة أخرى نراها قد حسرت نفسها عبر الطائفية والعداء للآخر؛ لذلك سنركز على العنوان الرئيسي، الذي لا يمكن تفسيره دون النظر إلى الإطار التاريخي العام الذي تم ضمنه مقارنة ما يسهم في تحديد مصطلح الحداثة وفي إمكانية الانفتاح على الآخرين، على مستوى وعي مفكرين وفلاسفة عرب.

وفي هذا المجال لا بد من الإشارة أن مصطلح الحداثة أصبح محط سجال فكري وفلسفي وتحول بعدها إلى إشكالية تحديث مجتمعات في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية والفكرية، وصفها جابر عصفورة قائلا: "البحث المستمر على أسرار الكون من خلال التعمق في اكتشاف الطبيعة والسيطرة عليها وتطوير المعرفة بها، ومن ثم الارتقاء الدائم بموضع الإنسان من الأرض، أما سياسيا واجتماعيا فالحداثة تعني الصياغة المتجددة للمبادئ والأنظمة التي تنتقل بعلاقات المجتمع من مستوى الضرورة إلى الحرية من الاستغلال إلى العدالة ومن التبعية إلى الاستقلال ومن الاستهلاك إلى الإنتاج ومن سطوة القبلية أو العائلة أو الطائفة إلى الدولة الحديثة ومن الدولة التسلطية إلى الديمقراطية، تعني الحداثة الإبداع الذي هو نقيض الإتياع، والعقل الذي هو نقيض النقل"¹³.

إذا تأملنا هذا الوصف بعينين فاحصتين، وجدنا موقف الكاتب من الحداثة شديد الوضوح، فصراع مفكرينا وانقسامهم حول هذه الإشكالية، هو صراع لا جدوى منه، لأن لا الانسلاخ من العصر والعودة إلى التراث الإسلامي وقطع الصلة تماما بكل أساليب العصر التقدمية الغربية الحديثة يعيق عملية التقدم، ولا موقف رفض العودة إلى التراث وقيمه وعدم الأخذ بآراء السلف، والارتقاء في أحضان الحضارة الغربية بكل اختلافاتها العقائدية والدينية ومبادئنا الأخلاقية، واللهث وراء التقدم الغربي من أجل رفع تحديات الحاضر لتحقيق مستقبل أفضل حلا مجديا.

فالمسألة ببساطة لا تحتاج إلى حرب ولا إلى صراع وتطرف، لأنه لا الموقف الأول موقفا عقلانيا ولا الثاني بحل منطقي؛ غير أن وبالتوفيق بينهما، أعتقد أن ثنائية الأصالة والمعاصرة هي الخريطة الصحيحة التي توجهنا لهذا اللحاق التقدمي، ولا شك في أن الإسلام دين عقل وعلم وعمل، إذن ما نحتاجه نحن العرب لبناء نهضة عربية ليس الاقتباس والنقل السهل من تجارب الشعوب المتقدمة، وإنما علينا تجاوزها بنهضة ذي أبعاد عربية وأهداف عربية ووعي ثقافي عربي يتناسب مع قدراتنا وإمكاناتنا.

2. الشعر العربي شاهد على الحداثة:

الشعر كما هو معروف، تجربة إبداعية لم تنشأ من فراغ، فهو ينمو داخل بيئته ليستمد مادته منها فالإنسان والطبيعة والكون مادة هذا الفن بصورة تلقائية مصحوبة بجمال طافح بالتنوع والتميز، لتتوافق مع تمثيل الواقع أو الاقتراب منه إذا استطاعوا على ذلك سبيلا؛ يعرفه هيوم يقول: "ثمة بيننا وبين الطبيعة بل بيننا وبين وعينا حجاب، وهو حجاب كثيف لدى الرجل العادي، وشفاف لدى الفنان والشاعر... ولو كان في مقدور الحقيقة أن تتصل اتصالا مباشرا بالحس والوعي لما كان ثمة حاجة على الفن أو بالأحرى لكنا كلنا فنانيين فالفنان والمقصود بالفنان هنا . الشاعر . هو الذي يولد منفصلا عن ضرورات الفعل والذي بفضل هذا الانفصال يستطيع أن يستخلص من الحقيقة شيئا عجزا نحن للتصلب الذي في إدراكنا أن نراه بأنفسنا".¹⁴

لقد كان الشعر "واحدا من أبرز المجالات الفكرية التي أحاطها العرب بهالة من القداسة جعلت كل رغبة في التغيير والتجديد تصطدم بسد منيع من المحافظة"¹⁵ ولكن هذا لم يمنع رواده في إطلاق حركة التجديد والمساهمة في بث روح التجديد فيه، فقد احتضنوا حركة الحداثة الشعرية العربية وجأهروا بجرأة لهدم "التدريج لمسلمات الماضي، وبديهياته المتمخض عن التأثير بعصر النهضة الذي يؤرخ له بحملة نابليون على مصر عام 1798م، وكذا كنتيجة حتمية لمفارقات التي هزت الذات في مرآة الآخر"¹⁶، وتلاقحت عقولهم بشعارات حركة الحداثة الشعرية الغربية وبتجارب شعرائها ودعاتها.

ويمكننا أن نلخص تحولات القصيدة العربي التي بدأت ملامحها تتشكل قبيل منتصف القرن العشرين، بتضافر مجموعة من العوامل الفكرية والثقافية أثرت في رسم معالمها

الحديثة خصوصاً أن "الماضي لم يعد يهم الشاعر العربي الجديد، كقدسية مطلقة نهائية، وإنما أصبح همه بقدر ما يدعوه على الحوار معه، وبقدر ما يضيئنا ونحن نسير في عتمة الحاضر صوب المستقبل. فالشاعر الجديد يأخذ هذه الأصوات مفتوحة للحوار والنمو والفعل بحيث أننا لا نقدر في تفكيرنا اليوم إلا أن نتلاقى بها ونفيد منها ونتفاعل معها. وفي هذا التلاقي والتفاعل لا نعاكس المجرى الذي يحفره نهر الإبداع باتجاه المستقبل، بل نصبح كمن يسير مع هذا المجرى ويرافقه ويعيش فيه، بانفتاح دائم، وفتوة أبدية"¹⁷.

يأتي استدعاء هذه الالتفاتة إلى تحول الشعر الذي أصبح بعد خروجه من عباءة الماضي الضيق إلى فضاءات أرحب لأن "الأساليب القديمة لم تعد تتيح إبداع أثر عظيم. والدليل ينهض كل يوم. فالذين ما يزالون يحافظون على المنهجية القديمة ليس لهم حضور في عالم الإبداع الشعري المعاصر. انهم ظلال شاحبة وتكرار عقيم. أما الذين يعطون اليوم للشعر العربي أعرق خصائصه فهم الشعراء المجددون"¹⁸، فإذا هم شعراء اخترقوا الأنماط التقليدية، تحرروا من تقاليد اللغة وتنحوا نحو متطلبات عصرهم فاستطاعوا بأسلوبهم البديع وبأدواتهم الخاصة عقد التواصل بصورة مكثفة محاكاة للداخل الإنسان العربي المتطلع إلى الحرية والتنمية، لكن "هذا التحول لم يكن فطرة بل كانت إرهاباته تختمر في صلب القصيدة التي كتبها جماعة "الإحياء" ووصولاً إلى القصائد التي أنجزها شعراء المهجر وجماعة أبولو"¹⁹.

وينبغي هنا في تأكيدنا على التحول، أن نشير إلى ما كان لجبران إبراهيم جبران من دور فعال في بث روح التجديد في الشعر العربي يؤكد محمد لطفي اليوسفي أن "المرء مع جبران يكف عن السير في كهوف التراث وأبراجه العاجية"²⁰.

وفي الموضوع نفسه يضيف كمال خير بك، في كتابه "حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر" أن "عاصفة جبران جاءت لتقتلع الأوثان المنصوبة على أيدي الأجيال المتعاقبة ولتطالب بتمرد الإنسان، والزمن الذي يشكل لديه الهيكل الشامخ للأبدية"²¹، إذن هو من الأوائل المتمردين على كل التقاليد، وهو من أراد بإسهاماته الإبداعية تحقيق إرادته في الانفصال عن قالب الماضي من أجل إيجاد حرته المطلقة، فهو لا يرى ضرورة

لإخضاع فن الشعر لمبدأ تقليد أسلافنا بشكل مطلق، التأكيد في المقابل وفي حالات كثيرة يصل تمسك المقلدون بشكل رفض تغيير الوضع السائد وتحولها أحيانا إلى مقاومة عنيفة ضد كل أشكال التجديد والخلق والإبداع، مبررين موقفهم "أن الشعر الجاهلي وصل إلى حد من الكمال الذي لا يمكن لأي شاعر محدث أن يزيد عليه أو يأتي بأحسن منه"²²

فهو يعد من بين الأوائل الذين أجادوا فهم "العلاقة بين المجددين وأسلافهم القدامى، أعمق جدا بين المقلدين وهؤلاء الأسلاف. فالمجددون لم يلحوا على التجديد، إلا لأنهم أجادوا فهم أسلافهم"²³، وقد صرح جبران بموقفه قائلا: "أن علينا كمجددين أن نكون في صلب التراث، ولكننا يجب أن نكون أيضا في صلب الحداثة. أي أننا نريد أن نبقى جذورنا في التراث، ولكن نريد لفروعنا أن تكون في عالم اليوم"²⁴.

وأصحاب هذه المقاربة يؤمنون إيمانا مطلقا بالحداثة، وبنجاحاتها وثمارها الخيرة التي تجعلنا قادرين على "فهم روح العصر، وهذا هو العنصر الذي يضمن بقاء هذه الدعوة، إذ ينبغي على كل شاعر وفنان أن يصرف جهده لتفهم روح عصره، والتعبير عنه، وعندما يتطور الزمن، ويصبح للعصر الجديد مكونات جديدة يظل المبدأ قائما وصالحا"²⁵

3. رواد حركة الحداثة في الشعر العربي:

من بعض نماذج هذه الأسماء التي وعت أبعاد الحداثة الشعرية الدلالية والإبداعية وأهم رواده ومؤسسيه نستطيع أن نقول: . ولكن دون التطرق للريادة والأسبقية . بين الريادتين: نازك الملائكة ونصهها " الكوليرا " التي نشرت أول مرة في مجلة "العروبة" جانفي 1948م، وبدر شاكر السياب، ونصه "هل كان حبا" من ديوانه "أزهار وأساطير"، بالإضافة إلى جهود أخرى لشعراء تمتعوا بحرية فكرية قلما نجد مثيلا، وهذه الجهود وجدت "في العراق ... الأولى التي كانت في أواخر القرن التاسع عشر... ومطلع القرن العشرين ... والتي يبرز فيها شعراء صاروا معروفين جدا... كالزهاوي والرصافي.. أعقبهم آخرون قد يكونون أصغر سنا... وأكثر شاعرية... وإيماننا بالشعر كالشبيبي... والشرقي .. والبصير... وغيرهم"²⁶، ولأن مقالنا لا يسع الرجوع إلى مسارب التاريخ والوقوف على كل

التفاصيل والجزيئات التي ميزت موضوع الأسبقية والريادة في الشعر الحديث للمواقف الكثيرة.

4. محمود درويش مؤسس الحداثة الشعرية في فلسطين:

ولكن الأمر يتعلق هنا بالكشف على أهم الدوافع التي يؤسس من خلالها الشعراء المحدثين والمعاصرين عملهم الإبداعي وتأمل المتعة المتأتمية من الغوص في عوالمها العميقة المفتوحة على التأويل، أقول هذا حتى أصل إلى النقطة الثالثة، وهي الجانب الأساس وهو البحث في فن وإبداع الشاعر الفلسطيني محمود درويش الذي عاصر النهضة الفنية في فلسطين من بدايتها، والتركيز على إظهار حسه الفني المتجاوز لحدود البصر عبر حسه الفني الفائق في دواوينه.

هي شهادة لفنان مبدع راق، وفي نفس الوقت لإعطائه حقه المستحق من تقدير واعتراف بأفضليته وتميزه، لأنه يستحق التقدير والشكر والثناء، علينا أن نذكر في البداية أن محمود درويش كان متعدد المواهب الأدبية والفنية، إبداعا ونقدا، "ولد الشاعر... في قرية (البروة) بمدينة عكا سنة 1941م، وهاجر بعد النكبة إلى لبنان مع عائلته إلى لبنان 1948م، ... وعاد متخفيا بعد عام ومكث في قرية (دير الأسد) بمدينة الخليل. ونتيجة الاحتلال كانت حياته شاقة... وأكمل دراسته الثانوية في قرية (كفر قاسم). وانتظم في صفوف الحزب الشيوعي هناك من خلال جريدة الاتحاد التي تنطق بلسان الحزب. وكان مسؤولا لتحرير مجلة الجديد التابعة للحزب، وتعرض للاعتقال عدة مرات بين 1961م و1972. فذهب إلى مصر ولبنان للعمل مع منظمة التحرير الفلسطينية. واستقال سنة 1993م محتجا على اتفاقية أوسلو وترأس رابطة الصحفيين والكتاب الفلسطينيين. وأقام في باريس فترة. ثم عاد إلى الوطن بعد تصريح سمح له بزيارة أمه. وقضى عدة سنوات في رام الله حيث أقامت السلطة الفلسطينية"²⁷.

سيعزز هذا في تجربته الشعرية المثقلة بالأحداث والخبرات والتجارب التي يقدمها هذا الشاعر المرفه الإحساس، الموفور على الذخيرة الإنسانية والحياة المهنية مشدود إلى هوى قومي طاغ وجزءا غير منقطع عن الوجد الفلسطيني، التي ألهمته شعرا وأنضجته إنسانا وفنانا، الذي "أغنى ... الشعر العربي الحديث باستعادة فذة للموروث وتطويع

فائق للمفردة التي تغذت بغنائية حديثة ساجلت الحدث الآني والهم القومي والشخصي وتجاوزت معه، وحفرت لنفسها حضورا قاوم بشدة كل همجية البطش الجاري كل يوم²⁸،

ونمضي في التساؤل لنقول: هل نحن أمام حالة تساير الحداثة؟ وما هو مفهوم الحداثة التي سادت أعماله الشعرية، وما الخصوصية التي تمتلكها إسهاماته الإبداعية؟ ان تجربة الشعر عند محمود درويش مثل كل تجارب المعاناة الإنسانية التي تتعرض لها الشعوب، فكان لتجربة الغزو جانب كبير في أعماله، لهذا كان ينبغي إعادة تأملها والبحث في تفاصيلها ولكن في المقابل أقول: أنه من الصعب الإحاطة بما أجاد هذا العبقرى، من تجارب إنسانية المصحوبة بمفاهيم جمالية واستعادة كل جوانبها المضيئة واكتشاف جانبها كبيرا من مميزات هذا الأثر الإبداعي، غير أن ضيق مساحة المقال تضطرننا إلى ذكر الأهم في محاولة تقريبية نؤكد حقيقة العنوان الأخير.

تحملنا الأبيات التالية لقصيدة "لا تعتذر عما فعلت" التي يقول فيها:

لا تعتذر عما فعلت . أقول في

سري. أقول لأخري الشخصي

هاهيذكرياتك كلها مرئية:

ضجر الظهيرة في نعاس القط /

عرف الديك /

قهوة الأم /

الحصيرة والوسائد /

باب غرفتك الحديدي /²⁹

أول ما يلفت في هذه الأبيات، سيرة وحقيقة الحياة التي عاشها درويش، وذكره لهذه التفاصيل اليومية الطيبة التي قد تركت أثارا كبيرة على وعيه، فهي لا تعني سوى الوطن والتاريخ، وهي اختراق متأصل يلزم الشاعر درويش المتشبع بروح القومية.

وينتهي قائلا في نفس القصيدة

أنني هو.... فاستعدت للغناء على

طريقتها: أنا الأم التي ولدته،

لكن الرياح هي التي ربته.

قلت لأخري: لا تعتذر إلا لأمك!³⁰

درويش يصف نفسه في هذه الأبيات بين القديم والجديد، كأنه يصحو من غفوة فتى في أحضان فلسطين القديمة، الذي عاد إليها وهي في مرحلة الهزيمة، وخلال هذه العودة التي يبدو فيها مشاعر القلق وكثير من الحزن لانعدام الأمان الكامل حتى بين المقربين إليه من وثق بهم. ويشعر القارئ من ناحية أخرى إنها صيحات بوعي ناضج يرى فقدان روح المبادرة لحكام العرب المؤيدين للغزو تجاه القضية الفلسطينية.

ونقرأ له أبيات أخرى من قصيدته "في مثل هذا اليوم" من نفس الديوان :

قلب الحقيقة طازجا لبنات أوى الجائعات

أقول: لست مواطنا

ثم أصير غيري في التجلي. تنبت

الكلمات كالأعشاب من فم أشيعا

النبوي: "إن لم تؤمنوا لن تؤمنوا"

أمشي كأني واحد غيري. وجرحي وردة"³¹

تؤكد هذه الأبيات أن دائرة التعبير عنده واسعة، فشعره ينسكب في لغة تشع بالتوهج، ويتفاعل مع الإيقاع النغمي امتدادا وعلوا، لاسيما الداخلي منه، فهو يشارك في البناء الشعري المتكامل همومه القومية والإنسانية وهي عناصر لم تغب عن قصائده، ذهب فيها إلى نوع من محاورة الذات المتألمة، فقد ظل مساره في قلب التوترات مرتبطا بوطن مغزو، وشعب مشئت، أما على مستوى الوزن فنجد في أغلب الأحيان يهمل الوزن لكن دون إهماله للإيقاع الذي ركز فيه على صياغة ما قد يثيره في النفس من إحياءات وأفكار ومشاعر.

من هنا يمكن أن نجيب ما سبق أن خلاصة محمود درويش الشعرية تكاد تكون تعبيرا يخرج من قلب المحنة والعذاب ليحيل القضية الفلسطينية المختنقة بأخبار المأساة والدم إلى ثورة شاعر أضاف وغير واحد مسارات جديدة للقصيدة العربية تجربة ولغة ووجدانا وموسيقى، " التي لا تتأني لغير المواهب الكبيرة والدربة العالية في

الموروث العربي والقراءة الواسعة في الآداب العالمية، والتجربة الصادقة في المعاناة والألم واللوعة"³²، لا تجد مثيلاتها عند عدد كبير من الشعراء.

يقول في هذه الأبيات:

لو يذكر الزيتون غارسه

لصار الزيت دمعاً

ستظل في الزيتون خضرته

وحول الأرض درعاً"³³

يتخذ درويش من خلفية مشهد شجرة الزيتون والزيتون رموزاً تعبر عن الغزو والاحتصاب، وتكاد تنطلق من بؤرة واحدة ولكن بطرق مختلفة، يلح درويش طيلة مسيرته الإبداعية شحن الأنفاس بهذه القضية حتى بلغت به غايته من هذا الفن وميزته شاعراً بين شعراء عصره. وهو ما يستشفه المتلقي من تجربته وما ينطوي عليها من رؤى جعلت من شعره يشكل ثقافة جديدة يساهم فعلياً في تجديد الحركة الشعرية العربية سواء النظرية أو التطبيقية.

ف"قصيدة الشاعر الراحل محمود درويش مدرسة في الإعجاز الشعري كبيرة للحرية الشعرية الخالقة للأشكال والصور، تجاوزت المقاييس، وشعره ألبس لباس التجديد بلباقة شاعرية فريدة، وفي عباراته الشعرية مجهود مميز، وبارز في مشهديات الصور وفي سياق العبارات، مما خلق مدرسة شعرية خاصة بمميزاتها، من الصعب أن تنتسب إلى أحد وبها تفاؤل كبير، هذا الشاعر الراحل هو في بداياته ابن الشعر الفلسطيني المقاوم، الذي تحول لاحقاً ليصبح مستقلاً عن المؤثرات الخارجية، ساعياً باستمرار إلى التمرد على ذاته، والعمل على تغيير جلده الشعري وتقنياته، ليصنف شاعراً عربياً عالمياً ضد الركود"³⁴

تتمثل حداثة درويش في إصراره على التحرر من كل القيود التعبيرية القديمة، المناقضة لحركية العصر، وتشكلت أيضاً في دعوته الفنية وميوله الفكري غير متجاوز قضيته الرئيسية، التي حتى عندما كتب شعراً جديداً وجدناه في صلب المعركة، التي ارتبطت بقضية فلسطين وطنه وبطفولته، وبالقدس، وبشجر الزيتون... وبكل رموزها والإصرار على أمل تحررها.

الهوامش:

1. عبد العزيز بوشعير، أزمة الحداثة الغربية: انتقال العقل الاسلامي من التقويض إلى البناء، بحوث ودراسات اسلامية، مجلة اسلامية المعرفة، السنة التاسعة عشر، العدد 76 ربيع 1435 هـ / 2014م ص 12 . عبد الوهاب المسيري، دراسات عربية في الحداثة الغربية، القاهرة، دار الشروق مصر (القاهرة) 2006م، ص 34.
3. ضيف شوقي، الأدب والنصوص، نهضة مصر، القاهرة 1977م / ج 3. ص 258.
- محمد الشيكرك، هايدغور وسؤال الحداثة الغربية، القاهرة، دار الشروق مصر (القاهرة) دار الشروق 2006م / ص 34.
5. عدنان علي رضا، تقويم نظرية الحداثة، دار النحو للنشر والتوزيع، السعودية ط 1 / 1992م، ص 32.
- شكري محمد عباد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت دط 1993م، ص 17.
6. عبد الحميد جيدة، الحداثة في الشعر العربي المعاصر بين التنظير والتطبيق، الكتاب الأول، (طرابلس) دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 / 1988م، ص 7.
- زعربان علي رضا النحوي، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض السعودية ط 1 / 1992م، ص 18.
9. أحمد الفراك، سؤال الحداثة في الفكر العربي، قراءة في كتابات طه عبد الرحمن، العدد 9 / 10، ص 1.
- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، بيروت المركز الثقافي العربي 10 ط 1 / 2000م، ص 35.
11. مصطفى هدارة، الحداثة في العرب المعاصر، مجلة الحدس الوطني، عدد ربيع الآخر 1410 هـ، ص 27.
12. محمد أركون، الاسلام والحداثة. ندوة مواقف دار الساق، ط 1 / دون تاريخ، ص 362.
13. علي وظيفة، مقاربات في مفهوم الحداثة، مجلة فكر نقد، عدد 34، سنة 1978م / ص 3.
- انظر، كمال خيربك، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، دراسة حول الاطار الاجتماعي الثقافي 14 للاتجاهات والبنى الأدبية، دار الفكر بيروت، ط 2 / 1986م، ص 184. 185.
- محمد العيد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بينها ومظاهرها، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 15 ط 1 / 1996م، ص 27.
16. محمد لطفي اليوسفي، في بنية الأشعر العربي المعاصر، سراس للنشر، تونس، ص 7.
- د محسن جاسم الموسوي/ د بئينة الخالدي، الأدب العربي الحديث، مختارات، المركز الثقافي العربي، الدار 17 البيضا، ط 1 / 2010م، ص 94.
18. نفسه ص 95.
19. محمد لطفي اليوسفي، في بنية الأشعر العربي المعاصر (م س) ص 7.
20. كمال خيربك، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر (م س) ص 34.

- 21 . نفسه ص 34.
- . حسين يوسف بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، دار الأئلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ط 2، 1983م، ص 37.
- 22 . محسن جاسم الموسوي، د بئينة الخالدي، الأدب العربي الحديث، (م س) ص 94.
- . جبران ابراهيم جبران، الحداثة الشعرية، مجلة العربي الثقافية، تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد 22، نوفمبر 2013 م، ص 120.
- . عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، شركة مساهمة مصرية، ط 7، 2010 م
- 25 . د محسن جاسم الموسوي، د بئينة خالدي، الادب العربي الحديث (م س) ص 100.
- 26 . د محسن جاسم الموسوي، د بئينة خالدي، الأدب العربي الحديث (م س) ص 305.
- 27 . نفسه ص 311.
- 28 . أبيات من قصيدة "لا تعتذر عما فعلت" من ديوانه نفس عنوان القصيدة، منشورات رياض نجيب الديس.
- 29 . أبيات من قصيدة "لا تعتذر عما فعلت" (م س).
- 30 . أبيات من قصيدة "في مثل هذا اليوم" من ديوان "لا تعتذر عما فعلت" (م س)
- 31 . د محسن جاسم، د بئينة خالدي، الأدب العربي الحديث (م س) ص 311.
- 32 . أبيات من قصيدة "أوراق الزيتون" ط 11، بيروت، دار العودة 1993م.
- 33 . انظر: حسين أحمد سليم، مقال بعنوان محمود درويش باق وان رحل، دنيا الوطن، تاريخ النشر 11 . 8 . 2008م.